الازدهار الاقتصادي لبلاد الشام في العصر الأموي 40 هـ ـ 132 هـ

الأستاذة : بن دراجي بشرى

جامعة باتنة 1

الملخص

تعتبر بلاد الشام من المناطق التي شهدت تعاقب العديد من الحضارات، ومنها الحضارة العربية الإسلامية التي تركت بصماتها في جميع الميادين، خاصة في الميدان الاقتصادي.

وفي هذا البحث نتناول بالدراسة و التحليل الازدهار الاقتصادي في بلاد الشام خلال العصر الأموي، وكذا العوامل التي ساعدت على ازدهار، و إبراز أهم مظاهره الاقتصادية على الرغم من الحركات الثورية التي شهدتها الدولة الأموية في تاريخها.

الكلمات المفتاحية : بلاد الشام ، الازدهار الاقتصادي ، الدولة الأموية ، الثورات.

abstract

The Levant is one of the regions that witnessed the succession of many civilizations, including the Arab-Islamic civilization, which left its mark in all fields, especially in the economic field.

This study deals with the economic prosperity of the Levant during the Umayyad period, as the factors that helped to flourish and highlight its most important economic manifestations despite the revolutionary movements witnessed by the Umayyad state in its history.

Keywords: The Levant , economic prosperity, Umayyad state, revolutions.

مقدمة

تحتل بلاد الشام مساحة واسعة من الأراضي التي تقع شرق البحر الأبيض المتوسط والتي تتكون من أربع مناطق هي سوريا و الأردن ولبنان و فلسطين ، ولها مكانة فريدة في التاريخ بفعل التعاقب الحضاري إلى الفتح الإسلامي في عهد الخلافة الراشدة ، ثم تأسيس الدولة الأموية متخذة دمشق عاصمة لها والتي أضحت من أعظم عواصم العالم ، لقد حقق الأمويون ازدهارا ملحوظا في جميع الميادين و خاصة في المجال الاقتصادي ، على الرغم من الثورات المتعددة التي واجهتها السلطة الأموية.

أمام هذه الوضعية نطرح الإشكالية الآتية كيف تمكن الأمويون من تحقيق الازدهار الاقتصادي رغم استمرار الثورات؟ وللإجابة على هذه الإشكالية نطرح مجموعة من التساؤلات ولعل أهمها:

1 ـ ما هي العوامل المساعدة على الازدهار الاقتصادي في بلاد الشام ؟

2 ـ فيما تتمثل مظاهر ازدهاره؟

3 ـ إلى أي مدى أثرت الثورات على الجانب الاقتصادي ؟

تعتبر بلاد الشام من المناطق التي تحتل موقع جغرافي هام ساهم في نقل مقومات الحضارة من جميع جوانبها للعالم، ولذلك فهي منطقة عامرة على مدى فترات التاريخ. (بني سلامة، م.2003: 4) دخلت بلاد الشام في الحكم الاسلامي بعد أن فتح القادة الأربعة يزيد بن أبي سفيان وأبي عبيدة بن الجراح و شرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص الذين وجههم أبي بكر الصديق لبلاد الشام سنة 12 هـ / 635 م واستكمل فتح كل الشام في عهد سيدنا عمر بن الخطاب. (13 هـ ـ 23 هـ)

لقد قسم المسلمون بلاد الشام إلى أربعة أجناد ، جند دمشق وحمص و الأردن وفلسطين و أضيف لها جند قنسرين حيث تولى معاوية بن أبي سفيان الأردن ، ثم ضم إليه ولاية دمشق لما توفي أخيه يزيد ثم ولاه سيدنا عثمان الشام كلها، و جعل ولاتها تابعين له .(الزركلي خ 2002: ج7 ،261) وبعد مقتل سيدنا علي تولى معاوية بن أبي سفيان حكم الدولة الإسلامية ، بعد مبايعة الحسن بن علي متخذا دمشق عاصمة لها (ابن الأثير، 1973: . ج3 ،261). و هنا بدأت بلاد الشام تشق طريقها نحو البناء و التطور خاصة في الميدان الاقتصادي رغم الثورات المتعددة .

1 ـ الموقع الجغرافي الفلكي : تقع بلاد الشام في الجهة الجنوبية الغربية لآسيا، يحدها من الغرب بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) و من الشرق بادية الشام من أيلة إلى الفرات وجنوبا حد مصر وتيه سيناء ورفح ، ويتفق الاصطخري مع ابن حوقل و المقدسي في تحديد أقسامها فيرون أنها فلسطين و الأردن و دمشق وحمص وقنسرين ، و يضيفون إليها الجبال و الشراة (الإصطخري إ. دت ، 23) ترتفع على مسافة 691 م عن سطح البحر، تقدر مساحتها حوالي 1,033,006 كلم مربع ،وتتضح الصفة البارزة في تضاريس الشام، التي تخترقها كثير من الجبال و السهول الخصبة تتناوب الأراضي المنخفضة و الأراضي المرتفعة من الشمال إلى الجنوب تحاذي بعضها البعض، (رحال ع ،2000 :12) وفي هذا الصدد أوضح المقديسي المظاهر التضاريسية كالآتي فالصف الأول يلي بحر الروم وهو سهل رملي منعقدة ممتزجة يقع فيه من البلدان الرملة وجميع مدن السواحل ، والصف الثاني الجبل مشجر ذو قرى وعيون ومزارع يقع فيه من البلدان بيت جبريل و ايليا ونابلس و اللجون وكابل وقدس والبقاع وأنطاكية.

والصف الثالث الأغوار ذات قرى وأنهار ونخيل ومزارع ونيل ، يقع فيه من البلدان أيلة وتبوك وصغر و أريحاء و بيسان و طبرية و بانياس، والصف الرابع سيف البادية وهي جبال عالية باردة معتدلة مع البادية ذات قرى وعيون وأشجار ، يقع فيه من البلدان مآب وعمان و أذرعات ودمشق وحمص وتدمر وحلب.

وتقع الجبال الفاصلة مثل جبل زيتا وصديقا ولبنان و اللكام ، في الصف الثاني وسرة الأرض المقدسة في الجبال المطلة على الساحل (المقديسي. 1980 ج1 ص 171)

ومنه تنحصر بلاد الشام بين دائرتي عرض 29° و 37° شمالا، وبين خطي طول 31° و 59° شرقا.

2 ـ العوامل المساعدة على الازدهار الاقتصادي : تتمثل العوامل المساعدة على الازدهار الاقتصادي في بلاد الشام في ما يلي:

1 **العوامل الطبيعية:** بالإضافة إلى الموقع الجغرافي لبلاد الشام هناك عدة عوامل طبيعية أخرى منها

أ/ **المناخ** يسود سواحل بلاد الشام مناخ البحر الأبيض المتوسط المعتدل و الممطر شتاءا و الجاف صيفا، أثر ذلك في تحديد الإنتاج الزراعي كما و نوعا .

أما في المناطق المرتفعة تخضع للمناخ الجبلي ، في حين يظهر المناخ القاري في المناطق السهبية بينما يسود المناخ الصحراوي في البادية ومنه تتناقص الأمطار كلما ابتعدنا عن الساحل.(حسين ف. 1984 ص 19)

ب/ **التربة:** إن الرواسب النهرية التي جرفتها السيول من السفوح الجبلية المجاورة للمناطق الساحلية أدت إلى تكون تربة خصبة و متنوعة (وهبي ص م. 2012. ص 221).

جـ/ **وفرة المياه:** تتوفر بلاد الشام على عديد من مصادر المياه منها:

ـ **الأنهار:** تعد الأنهار من أهم مصادر الري في بلاد الشام منها نهر العاصي الذي يستغله السكان في الشرب و ري مزروعاتهم (البدري دت . ص 7)

بالإضافة إلى نهر بردي الذي ينبع من عين الفيجة ومن عين الزبداني ، التي ينبع منها نهر الزبداني حتى يلتقي بنهر بردى وبذلك يشكلان روافد لنهر بردى ، الذي يتفرع قبل دخوله دمشق إلى سبعة فروع هي كالآتي :

ـ نهر يزيد سمي بذلك نسبة إلى يزيد بن معاوية الذي أمر بإنشائه.

ـ نهر ثورا نسبة إلى أحد ملوك الروم (ثورة) حيث أنشيء في عهده وسمي باسمه.

ـ نهر بلیناس نسبة إلى الحكيم اليوناني .

ـ نهر قنوات تسمى بذلك لكثرة القنوات التي تتفرع عنه لتغذية مدينة دمشق بالمياه.

ـ نهر مزة نسبة إلى قرية المزة وكان اسمه المنزة لما بها من صحة الهواء .

ـ نهر داريا نسبة إلى قرية داريا (شمس الدين ، م :198) .

ـ نهر الأعوج ينبع من جبل الشيخ ويصب في بحيرة الهيجانة جنوب دمشق .

نهر الأردن: الذي يعد من أهم أنهار بلاد الشام في ري المزروعات ويسمى نهر الشريعة ينبع من بانياس ثم يصب في بحيرة طبرية. (ابن شداد: الأعلاق ، ص 84) .

نهر الفرات: ويسمى أحد الرافدين وحماه يمر نهر الشام بسميساط ومنبج ويمر بنصبين و الرقة و الرحبة و العانة و الحديثة (ابن حوقل ،م 22)

نهر طرابلس: ينبع من جبل لبنان ويصب في البحر المتوسط يسقي بساتينها.

استطاع السكان و الفلاحون في دمشق الاستفادة من وفرة المياه الأنهار و فروعها التي تغطي كل غوطة دمشق .

نهر العاصي: ينبع من البقاع اللبناني المحصور بين سلسلتي جبال لبنان الغربية و الشرقية من منطقة تسمى اللبوة من بلدة بعلبك ويجري إلى غاية حمص (شمس الدين،م، 207) .

د ـ البحيرات: تتوفر بلاد الشام على العديد من البحيرات منها:

ـ بحيرة حطين: التي تتجمع فيها مياه الأمطار تستغل في ري المزروعات.

ـ بحيرة الحولة : تقع في مجرى نهر الأردن ، حيث تصب فيها منابع نهر الأردن الرئيسية ثم يخرج منها النهر نحو الجنوب (شمس الدين،م، 201).

هـ ـ الأمطار: تكثر الأمطار في فصل الشتاء و الخريف و الربيع ، علما أنها تتذبذب كميتها من سنة إلى أخرى، وبفضل وفرة مياه الأنهار و الأمطار خفف من تأثير المناخ القاري الجاف حيث تتراوح كمياتها بين 800 و 200 ملم (حسين ف ،1984 : 19) .

لقد اهتم خلفاء بني أمية بإنشاء العديد من مشاريع الري ، التي لعبت دورا كبيرا في الحملات الاستزراعية الكبرى خاصة التي قام بها معاوية بن أبي سفيان ، فأرست بذلك للدولة الفتية قواعد مالية و أنقذت الخزينة من أزمتها وقد تتابعت الحملات الاستزراعية في خلافة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد، حتى بلغت ذروتها في عهد هشام بن عبد الملك (102 هـ ـ 125 هـ) ووالیه خالد بن عبد الله القسري.حيث تجلى في حفر الأنهار وشق القنوات منها أبار و قناة الرملة تدعى بردة ، التي بناها سليمان بن عبد الملك في فلسطين ، وإقامة السدود وأحواض المياه و القناطر ونصب آلات مقاييس المياه (طهبوب ص، 2009: 156. 157) و بذلك رعت الدولة تأمين وصول المياه إلى الأرض الزراعية من خلال كرى وحفر الأنهار ، وشق الترع و القنوات وسد البثوق، و تحملت النفقة عليها، منها آبار الرملة وقناتها (یاقوت ،ح ،ج3 ، 69) إن كانت النفقة على ذلك مما يلزمها .

و ـ السهول: تتوفر بلاد الشام على سهول واسعة تتمثل في غوطتها الشرقية و الغربية ذات التربة الخصبة ساهمت في زيادة الإنتاج الزراعي.(وهبي ص،م، 2012 :221) حيث ساعدها اختراق نهر بردى لها(البكري،أ ، ج1 ،380) و من أهم السهول الساحلية الممتدة من الإسكندرونة شمالا،حتى غزة جنوبا الذي يبلغ طوله 1800 كلم ، ويرتبط مع سهول اللاذقية و جبلة ، وبانياس ، وسهل عكار

يتميز بتربته السوداء يضيق ويتسع في امتداده من طرطوس شمالا إلى طرابلس جنوبا ومن وادي النصارى شرقا في حمص إلى البحر المتوسط غربا.

2 ـ **العوامل البشرية و المادية** :تتمثل في ما يلي

أ ـ اليد العاملة : تتوفر بلاد الشام على يد عاملة كبيرة بحكم عدد السكان المتمركزين فيها منذ القديم وازداد عدد السكان عند استقرار الحكم الإسلامي في العهد الأموي وانتقال العديد من القبائل العربية هناك(كرد م، ع، كرد غوطة دمشق 1984: 17) .

ب ـ وفرة الأموال : توفرت لخزينة الدولة الأموية مصادر عديدة من الأموال منها الزكاة ، و الجزية ، و الخراج وهذا الأخير يأتيها من الأراضي التي تركت في يد أصحابها منذ الفتح وفرضت عليها ضرائب معلومة حيث بلغت مداخيل العراق في عهد معاوية خمسة آلاف ألف (البلاذري، أ، ج2 ، 358) و في عهد عبد الملك بن مروان كان خراج الأردن المئة ألف وثمانين ألف دينار، وخراج فلسطين ثلاث مئة ألف وخمسين ألف دينار، وخراج دمشق أربع مئة ألف دينار، وخراج حمص مع قنسرين و الكور التى تدعى اليوم العواصم ثمان مئة ألف دينار (البلاذري،أ،ج1 ،230) كل ذلك مكن الدولة الأموية من تطوير الاقتصاد.

جـ ـ وفرة المعادن : تتوفر بلاد الشام على العديد من المواد الأولية الخام منها الحديد ، تتركز مناجم الحديد في جبل لبنان وبيروت (الإدريسي،م ج1 ، 119) أما الفضة في اللاذقية شمال بعلبك و مصياف وعلى ضفاف العاصي ، وتشتهر دمشق و اللاذقية بوفرة النحاس ، أما معدن الذهب يتواجد في أنطاكيا كما تعتبر كل من تدمر ، و جيرود ، وحماه ، و الخليل مناطق غنية بمادة الملح (علي،م ك، 163) هذه المواد المعدنية ساعدت على ظهور عدة معامل صناعية .(بني سلامة ،ج،م 2003: 207) تعتمد على الفحم الحجري المجلوب من حلب و البادية القارة ، والمعرة ، كما تتوفر أراضي بلاد الشام على الطين والرمل الأبيض كالإسفيداج ـ الذي يصنع منه الزجاج ـ (ياقوت،ح، ج1، 426) ، ومادة الجير بلونيه الأبيض و الأحمر ومادة الرخام التي تتركز خاصة في بيت جبريل ، و بالأغوار.(المقديسي،م،1980: .ج1 ،167)

3 ـ مظاهر الازدهار الاقتصادي:

1 الزراعة: تعد الزراعة عصب الحياة الاقتصادية في بلاد الشام ، ورغم انعدام الاستقرار السياسي حاولت الدولة الأموية توفير الأمن للمزارعين و التجار و الصناع وأصحاب الحرف المختلفة ، فدفعت عنهم أذى الخارجين على الدولة و المنشقين عنها ، وعملت على حمايتهم من تعدياتهم ليعطوا أفضل ما يقدرون عليه . حيث أمرت عمالها باجتناب الإساءة إليهم ، وحذرتهم عاقبة الظلم و الجور على العمران ، وفي هذا الصدد قال زياد بن أبيه لعمال الخراج في ولايته " أحسنوا إلى المزارعين ، فإنهم لا تزالون سمانا ما سمنوا" (ابن قتيبة ، ع. 1997ج1 ،63)

أ ـ الأساليب الزراعية: يعتمد الفلاح في بلاد الشام على تقسيم الأراضي التي بيده إلى شطرين ، فيزرع شطرا ، ويريح شطرا ، و يتعاهده بالحرث لتقرع الشمس باطن الأرض ، ثم يزرعه في القابل ويريح الشطر الذي كان به الزرع ؛ هذا دأبهم ، (النويري، ش،2004: ج8 ، 187) وهذه الطريقة متبعة في حمص وحماه و حوران وكذلك في دوما لإراحة الأرض ، ومن أجل كسب محصول جيد ووفير من القسم الذي ترك دون زراعة عند زرعه ، (فالح ،ص ،ح، 1984: 79). و الذي يعرف في الوقت الحاضر بالدورة الزراعية ، كما مارس أهل الشام التطعيم وهو التركيب بجميع أشكاله ويذكر أبو البقاء أنه كان بالغوطة أشجار تحمل الواحدة منها أربع فواكه. كذلك الكرمة الواحدة تطرح العنب الأبيض و الأسود و الأحمر (أبو البقاء 1920 : 359) كما حاربوا الآفات الزراعية ، إذ قاوموا الدودة التي تهاجم شجر العنب عندما تتكون العناقيد بواسطة مادة الحمرية حيث كانوا يدهنون سيقان الكروم لمنع الدودة من الصعود للشجر ، وذكر ابن حوقل أن البحر الميت يقذف مادة تسمى الحمرية يلقحون به كروم فلسطين (ابن حوقل،م1992 : 190)

فعلى ضوء العوامل السابقة واهتمام الدولة الأموية ارتفع الانتاج الزراعي وتنوعت المحاصيل الزراعية أدت إلى تحقيق الاكتفاء الذاتي وتصديرها للمدن القريبة و البلدان المجاورة .

ب ـ المحاصيل الزراعية : تنتج بلاد الشام مختلف المنتوجات الزراعية منها:

ـ الحبوب: تتمثل في الشعير و الحنطة و القمح وتعتبر منطقة حوران مطمورة الحبوب في الشام (فالح ،ص ح،1984: 121) و الذرة و الأرز و البقلاء والبسلة و الجلبان و اللوبيا و الحلبة و السمسم و القرطم (القلقشندي،أ، 1987: ج4 ، 90)، التي تتركز زراعتها على سفوح جبل قاسيون (ابن طولون،م،1980: 43) و أنطاكية (علي م،ك، ج4 ،150)

ـ الخضروات: شاعت في بلاد الشام زراعة الخضروات وكانت تتركز في سفح قاسيون وحلب الذي كان يمون دمشق طوال السنة بأنواع الخضروات و البقول التي تتكون منها السلطات ، كالسلق و البراصيا و الكراث و السبانخ و الكزبرة و البقدونس و الخس الصيفي و الشتوي و الفجل(ابن عساكر علي 1995: ج2 ، 404)، كما تزرع القثاء ما يستطاب ويستحسن ، غيرها من المزروعات كالقلقاس والملوخيا والباذنجان واللفت والجزر والهليون والقنبيط والرجلة والبقلة اليمانية ، وغير ذلك من أنواع الخضروات المأكولة (القلقشندي،أ ، 1987: ج4 ، 90)

ـ الأشجار المثمرة : تعتبر بلاد الشام من المناطق الغنية بالأشجار المثمرة كالتين الذي تنتشر زراعته في غوطة دمشق والقابون و قرية المزة وبرزة وحلب وصفد وجبل عامل و مدينة الرملة، و أطرابلس و من أشهر أصنافه الملكي والميسوني و السلطاني وتوجد بها ما يقارب ستة عشر صنفا و يستهلك طازجا ، وما يزيد عن الحاجة أثناء المواسم يتم تجفيفه وتصديره إلى المدن و البلدان الخارجية ، (أبو البقاء،م 1920 :32) و أشجار الفستق التي اشتهرت به حلب ودمشق و الرملة و معرة النعمان (ابن حوقل،م 1982: 184) ، أما أشجار كروم العنب والرمان والبرقوق والمشمش والخوخ والتوت والفرصاد والقراصيا تزرع في الشويكة (ابن عساكر،علي1995 ج 2، 404) كما تنتشر بدمشق و حلب و جبل عالية زراعة التفاح وهي على أنواع يبلغ 23 صنفا ومذاقا (أبو البقاء،م،1920: 201) ويمثله أشجار الخوخ على 11 صنفا ، أما الكمثرى و الأترج يزرع في صور(أبو البقاء،م207 ، 211) ، أما السفرجل مع كونها أكثر أنواعا وأبهج منظرا ويزيد عليه فواكه أخرى،كما تزرع أشجار الزيتون غاية في الكثرة ومنه يعتصر الزيت وينقل إلى أكثر البلدان ، تتركز في دمشق، و المزاز ، و الشويكة ، وبأغوارها تتركز أشجار الحمضات خاصة الليمون والكباد والنارنج (القلقشندي،أ،1987:ج4 ص 90) و أشجار الكرم ذات الأصناف العديدة أشهرها الزيني و البلدي و الأحمر الداراني و الحلواني و الأسود في دمشق و الغوطة (كرد علي،ك،م، 180) .

أما أشجار المشمش تنتشر في غوطة دمشق وحماه و أنواعه غنية عن التعريف ذكر البدري إحدى وعشرين صنفا للمشمش أشهرها حموي ، سنديابي ، أوسي ، عربيني ، خراساني ، كافوري ويعد الحموى أشهر وألذ الأصناف طعما وأغلاها ثمنا (وهبي،ص،م،2012: 229) ، أما في حلب يزرع في أرضها القطن والسمسم والبطيخ والخيار والدخن والكرم والمشمش والتفاح والتين (القزويني:ز،ج1 ، 72). أما أشجار الكروم (العنب) تنتشر زراعته في جبل عامل وبقيعة التابعان لصفد(شمس الدين،م ،211)
بالإضافة لأشجار الآجاص و البرقوق التي تتركز في المزة و اللوان ، كما تنتج البطيخ الذي يزرع في داريا ودمشق و المرج (أبو البقاء،م، 213 . 223).

ـ النباتات الزهرية : تشتهر الشام بزراعة النباتات الزهرية مثل الزيزفون و الورد الجوري على ست أنواع و النرجس و الياسمين و المنثور و السوسن و الأقحوان و الآس وشقائق النعمان في قرية منين شمال جبل قاسيون (أبو البقاء،م، 343 345) ، و الريحان في

دمشق التي وصفها ابن بطوطة في رحلته "أنها جنة المشرق وعروس المدن قد تحلت بأزاهير الرياحين وتجلت في حلل سندسية من البساتين"، (ج1 ،37) كما تكثر الأزهار في جبل الطابور في الناصرة و القرنفل في حلب (حسين ف،1974: 132)

2 ـ الصناعة: استطاعت بلاد الشام بفضل ما توفر لها من مواد أولية زراعية أو معدنية من إقامة العديد من الورشات الصناعية ومن أشهرها:

أ ـ **الصناعات الغذائية** : اشتهرت بلاد الشام بصناعة الزيت المستخرجة من الزيتون وهي على نوعين الزيت الصافي يستعمل للاستهلاك ، أو لإنارة المساجد حيث يستهلك المسجد الأموي لوحده في كل سنة ألف قنطار (شمس الدين، م،200) ، ضف إلى ذلك المربيات و المخللات حيث تركزت في أغلب المدن الشامية وبالأخص دمشق و حماه وبيروت و نابلس و المزة وهي نفسها مناطق تمدها بالمواد الأولية الزراعية .

ب ـ صناعة الصابون: تتركز صناعة الصابون خاصة في دمشق وحلب و أنطاكية وحيفا ونابلس التي اشتهرت بجودتها حتى عرف بالصابون النابلسي ، ويصدر إلى سائر البلاد المصرية وجزائر البحر الرومي (كرد ،م علي ج 4 ، 157، 159)

ج ـ صناعة قصب السكر: تتركز صناعة قصب السكر أو ما يعرف حاليا بتكريره في أنطاكيا ويافا وعكا ومنطقة الأغوار وقد زاد عن حاجة السكان حيث ذكر كرد علي أنه يحمل إلى الأفاق (ج 4 ، 174)

د ـ صناعة ماء الورد: عرفت بلاد الشام بصناعة أنواع عديدة من ماء الورد منها الورد النصيبي وماء القرنفل الذي تتركز صناعته في دمشق و حلب و يصدر إلى الحجاز ومصر والهند وبلاد السند والصين وما وراء ذلك. (شمس الدين،م ،198)

هـ ـ الصناعة المعدنية : ازدهرت صناعة السيوف في الشام خاصة دمشق وبعلبك و القدس حتى عرف بالسيف الدمشقي و الدروع و الضبور و المجانيق وكل ما تحتاجه الدولة في حروبها أو لمتطلبات الفتوح في مشرق الأرض و مغربها ، (ديورنت، و،2013: ج 13، 108) .

و ـ صناعة الزجاج : تعد من الصناعات القديمة في بلاد الشام لوفرة المادة الأولية حيث ورثوا تقنيه صناعته من البيزنطيين واستمر إلى العصر الإسلامي خاصة في دمشق و الخليل .

زـ صناعة الروائح العطرة: اشتهرت بلاد الشام بصناعة الروائح العطرة لاهتمام الناس بزراعة الورود مثل الدمشقيين و في أريحا وأصبحت من الصناعات المطلوبة ليس عند الخلفاء و الأمراء بل من خارج الديار الإسلامية (شمس الدين،م، 207)

ح ـ صناعة الخشب: عرفت بلاد الشام بالصناعة الخشبية قبل الفتح الاسلامي وازدادت الطلب عليها من المجتمع حيث تستغل في تلبية حاجيات السكان الضرورية هذا من جهة ومن جهة أخرى اهتمام الدولة بتطوير أسطولها البحري خاصة في عهد معاوية بن أبي سفيان الذي ألح على ضرورة بناء العديد من السفن للوقوف في وجه الروم ، فتم بناء دار لصناعة السفن في كل من عكا وطرابلس و اللاذقية و بيروت و صور وكان جبل لبنان مصدرا هاما للأخشاب (ك ،م علي، ج5، 37).

ك ـ الصناعة النسيجية أو الحياكة : من أهم المناطق الشامية المشتهرة بالصناعات النسيجية التي تتركز في رصافة الشام التي بناها هشام بن عبد الملك ومن أهم أنواع المنسوجات الشامية (محمد،ص،ع، 2003 :107) جباب ، وخميصة ،و السراويل و البردة ، و الربطة ، و البرنس وهذه الأخيرة كانت ذات شهرة كبيرة ، وكان خلفاء بني أمية يكسون الناس الخز إلا الأصفر و الأحمر، ويكسونهم ما سوى ذلك من الألوان ويدخرون الأحمر و الأصفر لأنفسهم (محمد،ص،ع، 2003: 11) ، بالإضافة للقطيفة التي كانت من بين أعطيات الدولة للرعية (البلاذري،أ، أنساب الأشراف ج2 ،313) مما يبين على رفاهية المجتمع في ذلك العصر.

وهناك العديد من الصناعات الأخرى كصناعة الحلي و أدوات الزينة و صناعة الأواني النحاسية المنتشرة في كثير من المدن الشامية مما يدل على مدى تطورها و ازدهارها.

3 ـ التجارة: عرفت التجارة في بلاد الشام نشاطا متزايدا لوفرة الإنتاج الزراعي و الصناعي مما دفع بالسلطة الأموية لتوفير وسائل النقل البري من إبل وخيل وبغال ، حيث كان التجار يقودون قوافل تخترق بلاد الشام إلى أنحاء العالم الإسلامي ، أما النقل البحري فكانت السفن بأنواعها تخترق البحار شرقا وغربا يفرغون تجارتهم في الموانئ البحرية و ينقلون منها موارد جديدة بحركة تجارية ترد إلى الموانئ وكانت تنقل برا إلى الأسواق الداخلية و الخارجية.

ومن مظاهر الازدهار التجاري توفر العديد من الأسواق و المتاجر والحوانيت (ياقوت،ح ج 3 ص 312) حيث تتركز أهم الأسواق في مدينة غزة الواقعة جنوبا ، ومدينة جفار التي تتوسط بين فلسطين ومصر كما ضمت رفح و العريش وكانت جميعها عامرة وذات حركة كبيرة يردها التجار في البر و الحر ليلا ونهارا (ابن حوقل، م 1992: 152) ، ومدينة أيلة المطلة على البحر الأحمر فكانت تعتبر الميناء الجنوبي لبلاد الشام ، بالإضافة إلى بصرى الشام التي تعد بحق ملتقى تجار العالم (الأصفهاني،أ، 201) بالإضافة إلى مدينة طرابلس و عكا و اللاذقية التي هي قواعد للأساطيل البحرية التجارية (مؤنس،ح،2008:ج2،275) وبالتالي أصبحت بلاد الشام مركزا تجاريا هاما في العالم الإسلامي وكادت تحتكره في عهد الدولة الأموية (إسماعيل،أ،1994: 326) .

وما يدل على هذا التطور التجاري سك الدنانير والدراهم في عهد عبد الملك بن مروان حيث ضربها من فضة خالصة وكان الناس قبل ذلك يتعاملون بدراهم الفرس والروم (القلقشندي،أ،1987:ج1، 483) مما مكنهم من التحكم في المعاملات التجارية تصديرا و استيرادا. كما منح الاستقلال الاقتصادي للدولة

أ ـ **الصادرات** : تمتعت الدولة الأموية بخيرات وفيرة زراعية وصناعية دفعتها إلى تصديرها نحو الأسواق الخارجية سواء نحو المناطق القريبة مثل الحجاز و العراق و مصر وشمال إفريقيا و البعيدة مثل الصين و الهند .

ومن أهم صادراتها المنتوجات الغذائية المنقولة من فلسطين مثل: الزيت و القطين و الخروب و الملاحم و الصابون و الفوط و الجبن و القطن و التفاح و القرنيش و المرايا و قدور القنادل و الإبر ، و النيل و التمور و الحبوب و الخرفان و العسل و المطارح والسبح و الكاغد و البز و الأرز. ومن حماه وحمص الألبسة و البلعسية و الحبال و من صور السكر و الخزر و الزجاج المخروط و المعمولات.

ومن مآب قلوب اللوز. و من دمشق المعصور و البلعيس و الديباج و دهن البنفسج و الصقريات و الكاغد و الجوز و القطين و الزبيب وماء الورد و زهره إلى الحجاز و الهند و السند (المقدسي،م،1980: 147)

ومن حلب القطن و الثياب، وكانت موانئ عكا وبيروت وطرابلس و اللاذقية وخمس مدن داخلية منها الرملة و دمشق ، و حماه ، و أنطاكيا، وحلب هي حلقة الربط بين تعاملات الأمويين وبلاد اللاتين (ك،م علي 242 ، 243)

ب ـ الواردات: تستورد الدولة الأموية الكثير من السلع على الرغم من غنى أسواقها بما تحتاجه وهذا يدل على وفرة المواصلات ، و رفاهية المجتمع في بلاد الشام مما سهل ورود سلع عديدة من البلدان البعيدة

ـ فمن الشرق يجلب من الهند جلود النمور و الياقوت الأحمر و الأبنوس وجوز الهند ومن الصين الفرند و الحرير و الكاغد و المداد و البراذين الفرة و السروج (الجاحظ، ع، 1935: 25، 26).

ـ ومن الغرب أي بلاد الروم يجلب الخدم و الجواري و الغلمان و الديباج و الخز و الفراء إلى سواحل البحر بأنطاكيا (ك، م ع ،243) و أواني الفضة و الذهب.

ـ ومن البلاد العربية كاليمن البرود و الأدم و الزرافات و الجواميس ، ومن مصر الثياب الرقاق و القراطيس ودهن البلسان ومن المعدن الزبرجد الفائق (الجاحظ،ع، 1935: 27).

4 ـ أثر الثورات على الجانب الاقتصادي: ما إن تأسست الدولة الأموية سنة 40 هـ/ 660 م تحركت الثورات وكانت بداية القلاقل في عهد معاوية بن أبي سفيان حيث حاول الخوارج أن يثوروا من جديد على الخلافة ، وبحلول عام 45 هـ / 665 م نجح في إخماد ثورتهم وعاد الاستقرار الداخلي للدولة خاصة في الشرق بفضل واليه زياد بن أبيه الذي قدم البصرة سنة 45 هـ فضبط الأمر لمعاوية في جهة الشرق (الطبري،م1987: ج2، 122) وظلت الأوضاع على حالها لتشق طريقها نحو خدمة الاقتصاد إلى غاية وفاته سنة 60 هـ / 680 م، ومما ساعده على ذلك هو الفترة الطويلة التي تولاها معاوية في الشام كوالي في عهد الخليفة عمر بن الخطاب حيث ولا دمشق وبعلبك و البلقاء ، ثم أُفردت له الشام كلها في عهد خلافة عثمان بن عفان (ابن سعد،م، 1968: ج10، 59) حيث كسب مؤيدين له مكنته من الاهتمام بالجانب الاقتصادي. لتظهر حركات ثورية جديدة في عهد ابنه يزيد منها حركة الحسين بن علي في الكوفة ثم حركة عبد الله بن الزبير لكن لم تدم خلافة يزيد سوى أربع سنوات حيث توفي سنة 64 هـ / 684 م تاركا ابن الزبير دون قتله (ابن الأثير، ع 185، 192).

رفض معاوية الثاني تولي الخلافة و انتهى بانفراد بني أمية الفرع المرواني بالخلافة لكن خلافته لم تدم إلا شهور حيث توفي سنة 65 هـ / 685 م ليتولى ابنه عبد الملك بن مروان الذي ورث خلافة منقسمة بين الشام حيث مزاحمة عمرو بن سعيد الأشدق (70 هـ / 687 م) له و في العراق مصعب بن الزبير (71 هـ/ 690)م و في الحجاز عبد الله بين الزبير (73 هـ / 692 م) ثم حركة عبد الله بن الأشعث سنة (83 هـ / 702) م في الكوفة ليتمكن من إعادة الاستقرار للخلافة (ابن كثير،إ، 1988: ج8 ،286)

والسؤال الذي يمكن طرحه: ما مدى تأثير الثورات على الجانب الاقتصادي ؟

على ضوء ما ذكر سابقا نستخلص أن هذه الثورات كانت بعيدة عن بلاد الشام التي كانت مركزا للحكم مما مكن حكام بني أمية من السيطرة على الوضع و التوجه نحو تطوير الاقتصاد ، وهذا يعود للقوة العسكرية التي كانت تتمتع بها الدولة حيث تمكنت من بسط قوتها على أراضيها زد على ذلك ولاء القبائل الساكنة بالشام ، و ولاء الولاة القيِّمين عليها، واستدلالنا في ذلك عند بداية الدعوة العباسية بقيادة محمد بن علي بن عبد الله بن عباس لرجال الدعوة العباسية حين اختارهم للدعوة وأراد توجيههم إلى خراسان قال : «...وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبي سفيان وطاعة بني مروان...» (ابن قتيبة،أ، ج1، 88) .

تعد سنة 83 هـ / م 702 م مقدمة للازدهار الاقتصادي الذي بدأ تعرفه الدولة الأموية بفضل الفتوحات الكبرى التي شهدتها في الشرق و الغرب حيث عسكر المسلمون على نهر الأربد ، فأحيوه ،وبمثله على باب الرستن ، حيث أقطعوه للمقاتلة وساهموا بالتالي في إحياء الأرض وكذلك على باب حمص، وصار ملكا لأهلها ، لا خراج عليها ، وتؤدي العشر (ابن قدامة، ع، ج5،343، 344) وحصل مثل ذلك في أراضي حول حمص وعلى نهر العاصي وقد ساهم إقطاع التوطين الذي مارسه الأمويون في الساحل الشامي خاصة في خلق ملكيات عربية للأرض (حسين،ف،ص،1984: 1984: 16) مما ساهم في زيادة الإنتاج ، ،حيث غذته كثيرا الفتوحات الإسلامية الواسعة، فضلاً عن أن ربوعها شملت الكثير من المراكز الزراعية بفضل (موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي،1996: 82) إقطاع الأراضي و إحيائها في ربوع بلاد الشام حيث شجع الوليد بن عبد الملك (48هـ ـ 69 هـ/ 668 م ـ 715) و أخوه مسلمة على إحياء الأرض و زرعها وحفر الآبار فيها، والواقع أن الأمويين أسهموا من بيت مال إلى جانب رؤوس الأموال الفردية مساهمة فعالة في إحياء الأرض وزراعتها ، فعمر بن عبد العزيز(61 هـ ـ 101 / 781 م 720 م) لم يكن يتوانى عن القيام بصرف الأموال من بيت المال في سبيل إحياء أرض الصوافي و زرعها ، وبهذا أصبح بيت المال الأموي بمثابة بنك التسليف

(حسين،ف،ص 1984: 154) كما اهتموا بالصناعية التي أغنت وأثرت اقتصادها ومكنها أن توسعها ، كما أتاح لهذا التطور الزراعي و الصناعي نمو حركة تجارية ضخمة بين ولاياتها بدون عوائق، جعلت نقل البضائع والمتاجرة بها سهلاً ويسيراً، فازدهرت الحركة التجارية في الدولة (موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي،1996: 82 ، 88) وأصبحت متحكمة في أغلب الطرق التجارية الأساسية في العالم القديم، وسيطرت من ثم على الحركة التجارية .

وحسب رأينا لولا هذه الحركات المناوئة للدولة الأموية لكان التطور الاقتصادي أكثر ازدهارا مما كان لأن إخماد الثورات السابقة الذكر تحتاج إلى رؤوس أموال و أسلحة وتجنيد قوة بشرية التي ستكون عبء على الخزينة التي من المفروض أن تهتم بتحقيق الرفاهية الاجتماعية من خلال توفير مختلف حاجيات السكان الصناعية و الزراعية .

الخاتمة : مما سبق ذكره نستنتج ما يلي

ـ ساهم الموقع الجغرافي والظروف الطبيعية و البشرية لبلاد الشام في الازدهار الاقتصادي في العصر الأموي .

ـ اعتماد خلفاء بني أمية على ولاة أقوياء أكفاء فرضوا الأمن و الاستقرار في ربوع الخلافة عام و الشام خاص.

ـ ازدادت مساحة الدولة جراء الفتوحات مما خدم الجانب الاقتصادي للدولة وعزز بذلك الازدهار الاقتصادي لبلاد الشام .

ـ تمكن الأمويون من فرض الاستقرار و توفير الأمن للفلاحين من أجل خدمة الأرض فازداد الإنتاج الزراعي والصناعي، وزاد عن حاجة الدولة مما دفعها لتصديرها للمدن القريبة و البلدان البعيد بفضل توفر وسائل النقل المختلفة من برية وبحرية .

ـ إن أغلب الحركات المناوئة للدولة كانت بعيدة عن مركز الخلافة ـ دمشق ـ ومحيطها بلاد الشام ولذلك فإن تأثيرها لم يوقف حركة التنمية الاقتصادية.

قائمة المصادر:

1 ـ ابن الأثير: عز الدين علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري أبو الحسن ، (دت) الكامل في التاريخ، (دط) ، دم.

2 ـ ابن بطوطة: محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي (د ت) أبو عبد الله رحلة ابن بطوطة، دط.دم .

3 ـ ابن سعد: محمد بن سعد أبو عبد الله البصري (1968) الطبقات،(ط 1)، بيروت، دار صادر.

4 ـ ابن شداد : محمد بن علي بن إبراهيم عز الدين أبو عبد الله (1991) الأعلاق الخطيرة في ذكر في ذكر أمراء الشام و الجزيرة (ط1) سوريا ، وزارة الثقافة

5 ـ ابن طولون محمد الصالحي(1980) القلائد الجواهرية في تارخ الصالحية (ط2). دمشق مطبوعات مجمع اللغة العربية .

6 ـ ابن عساكر: علي بن حسن هبة الله أبو القاسم ثقة الدين، (1984) تاريخ دمشق (ط 1) دمشق دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع .

7 ـ ابن قتيبة عبد الله بن مسلم بن قتيبة أبو محمد الدينوري، (دت) عيون الأخبار ،(دط)، دم.

8 ـ ابن قدامة :عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي (1985) المغني، (ط 1)، بيروت دار الفكر.

9 ـ ابن كثير: إسماعيل بن عمر بن كثير أبو الفداء(1988) البداية و النهاية (ط1)،دار إحياء التراث العربي.

10 ـأبو البقاء محمد البدري المصري الدمشقي(1922) نزهة الأنام في محاسن الشام ، القاهرة المطبعة السلفية .

11 ـ الإصطخري :إبراهيم بن محمد أبو إسحاق الفارسي الإصطخري (دت) المسالك و الممالك، (دط)، دم .

12 ـ الأصفهاني : أحمد بن محمد بن الحسين أبو علي المرزوقي.(دت) الأزمنة و الأمكنة.(دط)، دم.

13 ـ البكري: أبو بكر بن محمد شطا الدمياطي(دت) المسالك و الممالك، دط ، دم

14 ـ البلاذري :أحمد بن يحي بن جابر(دت) فتوح البلدان (دط)، د م .

15 ـ البلاذري أحمد بن يحي بن جابر(دت) أنساب الأشراف(دط)، د م.
16 ـ الجاحظ :عمرو بن بحر أبي عثمان البصري (1935) التبصر بالتجارة (ط 2) مصر المطبعة الرحمانية.
17 ـ الطبري: محمد بن جرير أبو جعفر (1987) تاريخ الأمم و الملوك،(ط1) بيروت دار الكتب العلمية.
18 ـ القزويني بن محمود زكريا بن محمود بن محمد القزويني ،(دت) آثار البلاد و أخبار العباد، دط، دم
19 ـ القلقشندي: بن علي أحمد (1987) صبح الأعشى في صناعة الإنشا (ط1).دمشق دار الفكر.
20 ـ محمد بن علي أبي القاسم الموصلي الحوقلي الغدادي(1992). صورة الأرض. دار مكتبة الحياة للطباعة و النشر.
21 ـ محمد بن محمد المقدسي (1980) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (دط)، دمشق وزارة الثقافة والإرشاد القومي.
22 ـ محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الإدريسي(دت) : نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، دط ، دم .
23 ـ محمد شمس الدين أبو عبد الله أبو طالب الأنصاري الصوفي الدمشقي شيخ الربوة (1895) نخبة الدهر في عجائب البر و البحر مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية مدينة بطربورغ .
24 ـ النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب(2004) نهاية الأرب في فنون الأدب، (ط1) بيروت، دار الكتب العلمية
25 ـ ياقوت الحموي أبو عبد الله (دت) معجم البلدان، بيروت دار الفكر.

المراجع :

1 ـ بني سلامة جميل محمود (2003) دمشق في العصر العباسي خلال الفترة 132 هـ ـ 264 هـ / 749 م ـ877 م رسالة دكتوراه الجامعة الأردنية.
2 ـ حسين فالح صالح فالح (1974) الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الأموي رسالة ماجستير، جامعة الاردن.
3 ـ ديورانت ول وايريل(2013) قصة الحضارة دار الجيل، الناشر المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم
4 ـ طهبوب صلاح(2009) العصر الأموي،عمان الأردن دار أسامة للنشر و التوزيع.
5 ـ عاطف رحال. (2000) تاريخ الشام الاقتصادي في العصر الأموي بيروت،بيسان للنشر والتوزيع و الإعلام.
6 ـ عبد الشافي محمد عبد اللطيف (2011)موسوعة السفير للتاريخ الإسلامي العصر الأموي، (دط) القاهرة، ،سفير.
7 ـ علي أحمد إسماعيل(1994) تاريخ بلاد الشام منذ ما قبل الميلاد حتى نهاية العصر الأموي(ط3) دمشق، مطبعة جوهرة الشام .
8 ـ العلي صالح أحمد(2003) المنسوجات العربية في العصور الاسلامية الأولى، (ط 1).بيروت، لبنان شركة للمطبوعات و النشر.
9 ـ علي محمد كرد (1984) غوطة دمشق، (ط3) بيروت دار الفكر المعاصر.
10 ـ علي محمد كرد خطط الشام (ط2) بيروت مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
11 ـ مؤنس حسن ،(1987) أطلس تاريخ الإسلامي،(ط 1) القاهرة، الزهراء للإعلام العربي.
12 ـ وهبي صالح محمود (2013) كانون الثاني حزيران التطور الزراعي الصناعي في غوطة دمشق وأثره في الحياة الاقتصادية خلال القرنين العاشر و الثامن عشر. مجلة دراسات تاريخية (117 ـ 118) 210 ـ 242 .